أ- محمد الصالح أنور زموشي جامعة البليدة2-لونيسي علي

من ملامح المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الأجنبي بمنطقة متيجة في العصور القديمة

الملخص

تعد المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الاجنبي بمنطقة متيجة في العصور القديمة من اهم صفحات تاريخ المغرب القديم عامة و الجزائر خاصة(نوميديا قديما)،لا سيما و ان المصادر الكتابية الاغريقية و خاصة اللاتينية(الرومانية خاصة)،غضت البصر عن هذا الموضوع لتبيان ان السكان المحليين قبلوا طواعية الاحتلال ،الا ان الاحداث و المعطيات التاريخية اثبتت عكس ذلك،و هو ما سنبينه اعتمادا على المصادر و المراجع التي عالجت الموضوع.

النص

لقد عرف الإنسان النوميدي عبر التاريخ،بأنه ذلك الرجل الحر الذي لم يقبل أبدا الانصياغ تحت وطأة أي احتلال كان،و من بين محطات المقاومة الشعبية ضد الاحتلالات الرومانية ثم الوندالية (بشكل وجيز) و أخيرا أحفادهم البيزنطيين(أحفاد الرومان) سكان متيجة و نخص بالذكر موريطانيا القيصرية التي ساندت كل الثوار الذين مروا على أراضيها

فترة الاحتلال الروماني

الوقائع الحربية التي شارك فيها إخوة جيلدون :

وأهمّ وقائع هذه الجولة تمثلت في عدّة معارك دارت بين الطرفين في مناطق مختلفة من تراب **القيصرية**، أهمّها تلك التي أسفرت عن استرجاع **قيصرية** وفك الحصار عن **إيكوزيوم وتيبازا وإقليم متيجة** عمومًا. ثم راح تيودوز بتعقب فيرموس ويطوع القبائل الثائرة من إقليم سطيف إلى ما وراء مرتفعات الونشريس مرورًا بالتيطري وبلاد الحضنة التي تغلغل الجيش الروماني فيها إلى ما وراء جبال أولاد نايل. ومن أشهر المعارك الفاصلة تلك

التي دارت في إقليم الصومام على طول الطريق الرابط بين سطيف وقيصرية أثناء اختراق الجيش الروماني لأراضي القبائل المورية الثائرة. وذكر أميان أنّه كان على رأس المقاتلين المور إخوة لفيرموس منهم مكزيزل وديوس وسماك وأن تيودوز عاث في تلك البلاد فخرب المزروعات واغتصب المؤن والذخائر من المخازن إلى أن بلغ **ايكوزيوم** فحرّرها وأطلق سراح الأسرى بها. ثم واصل زحفه نحو **تيبازا** ومنها إلى **قيصرية** التي وجدها رمادًا حسب تعبير أميان، فأقام فرقتين من الجيش لحراستها ومحاولة ترميم مبانيها، ولم يشر الكاتب إلى المعارك التي تكون قد دارت في إقليم **قيصرية**[1].

ثورة جيلدون :

تيقن جيلدون انه ارتكب اكبر خطأ في حياته من وراء اختياره للجانب الروماني، وما إذا كان هذا الانحياز ناتجًا فعلا عن الصراع الداخلي الذي واجهته أسرته النوميدية. وبعبارة أوضح هل أن اختياره هذا كان هدفه الانتقام من أخيه فرموسة ومناصرة قضية سماك التي اتخذها الرومان كذريعة للتدخل في شؤون هذه الأسرة النبيلة ؟

للإجابة عن كل ما سبق يمكن أن نعتقد من خلال الشواهد التي اطلعنا عليها بأنّ جيلدون في بداية الأمر كان قد انحاز إلى جانب أخيه سماك في الصراع العائلي نتيجة اقتناع شخصي، لكنّه فيما بعد عندما اكتسبت قضية فرموسة بعدًا سياسيًا هدفه تحرير موريطانيا فإنّنا نراه أصبح أسيرًا للمغريات الرومانية. وبالفعل فقد عيّن جيلدون بعد القضاء على ثورة فرموسة قائدًا عامًا لفرق الجيش الروماني العاملة بإفريقيا ثم أعطى لقب كونت (نبيلا) أي حاكمًا لكل إفريقيا بدلاً من موريطانيا القيصرية التي كان يطالب بها فرموسة وذلك سنة 385م ثمّ أعطيت له صلاحيات تفوق تلك

([1]) شنيتي محمد البشير الجزائر في ظل الاحتلال الروماني بحث في منظومة التحكم العسكري(الليمس الموريطاني)و مقاومة المور ج2 ص ص362–364

التي كانت تسند للقناصل في إفريقيا. وحتى يقربّه الإمبراطور الروماني تيودوز (Théodose) منه أكثر فإنّه زوج أحد أحفاد زوجته إيليا فلاسيلا (Aelia Flaccilla) بابنته، هذا الزواج الذي اعتبر سياسيًا أكثر منه علاقة إنسانية. ونتيجة لذلك أصبح جيلدون متورطًا في العمالة. في نظر القبائل الموريطانية.

استمر جيلدون محافظًا على ولائه للإمبراطورية لعدّة سنوات وذلك نظرًا للدعم المادي والمعنوي الذي كان يتمتع به شريطة أن لا يفكر في الخروج عن حظيرة الدولة الرومانية وأن لا يساوره أي تفكير في الاستقلالية مثلما كان الشأن مع فرموسة.

غير أنّ جيلدون استعاد وعيه واستفاق من نشوة الانتصار والانتقام من أخيه فرموسة فوجد نفسه تورط في قضية لها أبعاد سياسية وبذلك فقد أساء من حيث هو يدري أو لا يدري إلى سمعة الأسرة وتنكر لخط المقاومة التي تفرضها عليه مكانته الاجتماعية بين الأسر النبيلة في موريطانيا القيصرية. ووفقا لذلك نراه يحاول أن يصلح ما أفسده عامل الغيرة والحقد على أخيه ويتصرف كقائد عسكري تفرض عليه ظروف تلك المرحلة أن يواصل ثورة العصيان والتصدي للاستعمار الاستيطاني الروماني، لا سيما وهو بحكم تعيينه نبيلا وقائدًا عامًا للجيش جلّه من المنجدين الأفارقة وله من الإمكانيات ما يساعده على تخليص **موريطانيا** فحسب، بل كامل الشمال الإفريقي الذي كان يتعرض لاستعمار بشع[1].

كانت أوّل الخطوات التي أقدم عليها جيلدون في إعلان عصيانه هو :

تنكره للديانة الرسمية للإمبراطورية عن طواعية للحركة الدوناتية بجناحيها الديني والإيديولوجي.

أمّا الخطوة الثانية فتمثلت في محاولته توظيف ثروته في إنشاء إدارة خاصة مستقلة عن الكيان الروماني في بلاد المغرب القديم.

([1]) .غانم محمد الصغير مقالات و اراء في تاريخ الجزائر القديم ص ص216–224

كما تمثلت الخطوة الثالثة في إقدامه سنة 395م على تحديد مقدار مساعدات الحبوب التي كانت تتلقاها روما من شمال إفريقيا وفي السنة الموالية عمد إلى إلغائها نهائيا [1].

وقد كانت الخطوة الأخيرة التي أقدم عليها جيلدون والتي أثارت غضب مجلس الشيوخ في روما هو إعلانه بعد وفاة الإمبراطور تيودوز (Théodose) عن عدم اعترافه بالإمبراطور هنوريوس (Honorius) إمبراطور الغرب الروماني محاولاً إلحاق شمال إفريقيا بالإمبراطور آركاديوس (Arcadius) حاكم الشرق الروماني الذي كان مقرّه مسبقًا القسطنطينية (Constantinople) وكان يعلم بأنّ هذا الأخير لا يستطيع أن يمدّ نفوذه إلى الأقاصي البعيدة، وبالتالي ستصبح له السيادة الكاملة والاستقلالية التامة في شمال إفريقيا.

وردًا على دهاء هذا الخصم العنيد عمدت روما كعادتها إلى ضرب الأفارقة ببعضهم، وبذلك سخرت شخصية موريطانية، أخرى كانت ترى فيها القدرة والكفاءة للقضاء على جيلدون هذه الشخصية هو القائد ماسيزيل (Mascazel) الذي كان يضمد جراحه ويكتم غيضه ثم ينتظر الفرصة المواتية للانتقام لأخويه اللذين نكّل بهما جيلدون أثناء حروبه ضد فرموسة [2].

استجاب هذا القائد النبيل، هذا يرجع إلى رغبة الرومان ووضع نفسه في خدمتهم، وبذلك لقب قائدًا للجيوش الرومانية التي تحرّكت من قرطاجة الرومانية للإطاحة بجيلدون بقصد إعادة تثبيت السياسة الرومانية في المنطقة. وفعلاً فإنّه بعد مناوشات عديدة خسر جيلدون المعركة بالقرب من امديرا (Ammeadara) حيدرة حاليًا بالحدود الجزائرية الشرقية مع

(1) . F. Décret et M. Fantar, l'afrique du nord dans l'antiquité., p. 340.

(2) . W. H. C. Fred, The Donatist church. A mouvement of protest in Roman North Africa, OSC Ford, 1952-2ème éd. 1971, p. 131.

تونس بولاية تبسة، ثم حاول الفرار بعد ذلك بحرًا، إلاّ أن محاولته باءت بالفشل، فألقي عليه القبض وزج به في السجن ينتظر حبل المشنقة.

وبالمقابل فإنّه بعد إخماد ثورة جيلدون أسند الحكم في بلاد المغرب القديم إلى حاكمين من أصل روماني، تمرّد الأول عن السلطة المركزية الرومانية سنة 413م والثاني سنة 427م.

وقد أدّى الأمر بهذا الأخير واسمه بونيفاس (Bonifatius) إلى الاستعانة بالوندال الذين كانوا قد استولوا على إسبانيا حينذاك. وكانوا ينتظرون تهيئة الفرص الملائمة لاقتحام شمال إفريقيا للإطاحة بالحكم الروماني. وقد تمّ لهم ذلك بعد 31 سنة من الإطاحة بحكم جيلدون [1]

فترة الاحتلال الوندالي و خاصة البيزنطي

وهذا ما ينبه إلى أنّ المناطق المعينة بالضغط الموري هي **المراكز الساحلية من القيصرية** التي كان يحتلّها الوندال الذي انهزموا امام المور،فسرعان ما جاء احتلال احفاد الرومان و هم الروم او البيزنطيين شمال إفريقيا او بالاحرى المغرب القديم، وذلك لقربها من إسبانيا، وإلاّ فكيف نفسر انتقال اللاجئين الرومان إلى الشاطئ الإسباني إذا كان الأمر يتعلق بموريطانيا السطيفية أو نوميديا وغيرهما من المقاطعات الشرقية، حيث سبق للاجئين من هذه الجهات أن توجهوا إلى إيطاليا والشام وبيزنطة أثناء غزوات قبائل المور الأوراسية على أقاليم تلك المقاطعات. فاحتمال انتماء القائد غرمول وشعبه المكوريت (مغرواة) إلى **موريطانيا القيصرية** أقرب إلى التصديق رغم غياب الدلائل الكافية، ومع هذا فالتساؤل يبقى قائمًا حول موطن شعب المكوريث في **موريطانيا القيصرية**.

وسيظل تساؤل مماثل مطروحًا حول القائد غرمول، فنحن لا نعلم عن نسبه شيئًا، فهل كان يحتل موقعًا في عائلة ملكية ما من ممالك المور ؟

---

(1) **. P. A. Février « Religion et domination dans l'Afrique Romaine », Dialogue d'Histoire ancienne, II, 1979, pp. 305-336.**

أم أنّه ظهر فجأة على رأس قبائل المكوريت دون أن يكون لسلطته سند تاريخي ضمن ممالك المور ؟ إنّها تساؤلات تنطبق على معظم الملوك والأمراء المور المتاخمين للمقاطعات الرومانية أو البيزنطية، والأمر ..... بإهمال أخبارهم من طرف الكتاب المعاصرين من جهة ولكونهم لم يخلفوا آثارًا تعيننا على تصور كياناتهم وفهم مواقفهم وتصرفاتهم إزاء أعدائهم من جهة ثانية. فآثارهم عبارة عن ضربات سيوف سحبت نتفا من ذكرهم في كتب وأخبار أعدائهم.

ويظهر أنّ الحدود البيزنطية بين السطيفية و**القيصرية** قد تراجعت شرقًا لصالح الممالك المورية في الربع الأخير من القرن السادس، وخاصة بعد حروب شعب المكوريت المذكور، حيث اختفت من ..... ممتلكات بيزنطية مدن وأقاليم كانت تابعة للسطيفية، كبلاد حضنة وعلى سطيف ولم يظهر في وثيقة غريغوار الكبير سوى مدينة سطيف وروسوكورو **Rusuccuru (دلس)** الواقعة على الساحل [1] ممّا يوحي بسقوط القلاع والمدن المحصّنة الواقعة غربي سطيف بأيدي المور، بما في ذلك مدينة **قيصرية** نفسها التي غابت هي الأخرى عن تلك الوثيقة وعوضتها مدينة سبتة كعاصمة لموريطانيا الثانية كما ذكرنا أعلاه.

إنّ تراجع البيزنطيين عن ليمس الحضنة إجراء ينم عن إحساسهم بالعجز أمام تفاقم شأن المور الرحل من البدو الجمالة، وهو ما ترتّب عن سقوط معظم أراضي المقاطعة السطيفية بأيدي المور لتعذر حمايتها عن طريق التحصينات المقامة شمالي مرتفعات الحضنة بمفردها. فهذه المنشآت تفقد فعاليتها العسكرية بدون شبكة الدفاعات المتحكمة في مخارج سهل الحضنة. وهكذا دّل التقطيع الإداري الجديد المنسوب إلى الإمبراطور ماركوس أواخر القرن السادس، على اعتراف البيزنطيين بأمر واقع فرضه عليهم جيرانهم المور فحاولوا تثبيت ما بقي بحوزتهم من مناطق

(1). DIEHL Charles l'afrique byzantine(1896)P.470.

إفريقية وتنظيمه إداريًا وعسكريًا قصد حمايته من النهش المتواصل. إنّ التحليل السابق يشجعنا على تصور الخريطة السياسية لبلاد المغرب على النحو التالي :

- البيزنطيون، وكانوا يسيطرون على البلاد الواقعة ما بين خليج قابس وسطيف مرورًا بالقلاع التي أقاموها شمالي الأوراس وبلزمة، مع احتمال ضعيف لاحتفاظهم ببعض المراكز الساحلية القليلة في مقاطعات طرابلس والقيصرية اعتمادًا على قواتهم البحرية وتأمينًا لأسطولهم في عرض المتوسط الغربي.

- ممالك المور التي سيطرت على **بقية البلاد** بصفة يصعب معها تبين معالم الحدود فيما بينها أو مع البيزنطيين.

الخلاصة :

وخلاصة القول يمكن أن نستنتج من كل ما سبق النقاط التالية :

1. لم تنقطع ثورات الأهالي في شمال إفريقيا طيلة فترة الوجود الروماني في المنطقة.

2. كان للأسر النبيلة دورها في توجيه السياسة الرومانية سلبًا أو إيجابًا.

3. خلفت سياسة الرومنة التي طبقت في شمال إفريقيا روح العداء المتواصل لدى السكان الأصليين تجاه المستوطنين الرومان وجعلتهم يجربون كل أنواع المقاومة للحدّ من السياسة التوسعية التي سلكها المستعمرون الرومان.

4. كان الرومان لا يثقون في الأسر العريقة النوميدية والموريطانية، بل عملوا باستمرار على إثارة الشقاق والنزاع بين أفرادها بغية إيجاد الفرص الملائمة للقضاء عليها أو استبدالها بأسر أخرى تقبل العمالة مقابل مكتسبات طفيفة مادية كانت أو معنوية.

5. عجز الديانة المسيحية عن تسوية المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كان يتخبط فيها المجتمع الروماني ممّا جعل غضب الفقراء والعبيد يزداد حدّة، وبالتالي يحاولون الانتقام من الطبقة الثرية التي باتت تمسك في يدها السلطة الزمنية والروحية.

6. تشابه والتقاء الفترتين الاستعماريتين الرومانية في شمال إفريقيا والفرنسية في الجزائر من حيث الفكر والمحتوى مع فارق الزمن بينهما.

كان لروح المقاومة والتحدّي اللذين واجه بهما سكان المنطقة في كلتا الحقبتين الاستعماريتين المتباعدتين الرومانية قديمًا والفرنسية حديثًا دورهما في التمسك بالبعد الحضاري لأمتنا والمحافظة على وحدتها الترابية ويلاحظ أنّه مهما اختلفت سياسة الرومنة والفرنسة فهما كانت واحدة.

غير أنّ الطرف المقابل لم يكن سهل العريكة على مرّ الزمن ونتيجة لذلك تحطمّت على صخرته، كل أنواع المسخ والتشويه اللذين أفرزتهما الحقبتان الاستعماريتان.

خاتمة :

إن تاريخنا القديم لا يزال يحتاج إلى وقفة تأملية تراجع فيها كامل الآراء والأفكار التي كتبت أثناء فترة المدرسة الكولونيالية، ذلك لأنّ التحامل وتزييف الحقائق كان الطابع المميّز لكثير من مؤلفي تلك الحقبة والتي اغتصبت فيها الجزائر وألحقت بفرنسا، حيث جعلت منها ولاية فرنسية يفصلها عن الوطن الأم (فرنسا) البحر المتوسط، ولم تتوقف ذهنية أصحاب تلك المدرسة (ساستها ومثقفيها) عند ذلك الحدّ بل امتدت أقلامهم إلى تزييف التاريخ الذي يقدم للطفل الجزائري المحظوظ في ذلك الوقت ! الذي حصل على مقعد في مدرسة الأهالي (Ecole Indigène) حيث كان يلقن أوّل درس في تاريخ بلاده باللغة الفرنسية (أجدادنا هو الغاليون Nos ancêtres les gaulois).

بناء على ما سبق جاءت هذه المقالات الخاصة بتاريخنا القديم والتي جمعت في شكل كتيب لتزيح بعض الضبابية المضللة والتشويه اللذين لحقا بتراثنا الثقافي والتاريخي منه بصفة خاصة وهي تحاول تقديم التدرج الحضاري لأمتنا بكلّ فسيفسائه مالها وما عليها. وعلى العكس من ذلك يخرج المتصفح للتاريخ ان واقع التاريخ الحضاري لأمتنا ضارب في أعماق الزمن، فهو تاريخ يأخذ ويعطي ويراعي الجوار الجغرافي سواء أكان ذلك على مستوى القارة الإفريقية التي نحن جزء منها أو الثقافة المتوسطية التي تغطي سواحلنا الجزء الكبير من جنوب حوضه الغربي.و كذا نفس الشأن بالنسبة للاراضي الواقعة شرق نهر النيل و التي ساهم فيها المغاربة القدامى مساهمة فعالة تشهد لها المصادر المادية قبل الكتابية

لقد تغيرت الأوضاع في المنطقة المتوسطية وظهرت على المسرح الدولة الرومانية المتسمة بالروح العسكرية وإيديولوجية التوسع والهيمنة وبذلك تضاربت المصالح بين المغاربة وحلفائهم الطبيعيين القرطاجيين من جراء تدخل الرومان ومحاولة إغرائهم لبعض القادة النوميديين مثل ماسينيسا وإبنه مسيبسا اللذين انحازا للرومان، وعلى عكس من ذلك، فإنّ سيفاقس بقي وفيًا للكيان القرطاجي، وذلك لأنّه كان يدرك تمام الإدراك أنّ مصير مملكته مرتبط بقرطاجة مهما كانت جشاعة أرستقراطيتها فهي أقل سوء من هيمنة العسكرية الرومانية التي كانت في أوج قوّتها رافعة شعار " السلم الروماني " (Pax Romana) والتي لا تقل شراسة عن سلبيات هيمنة العولمة التي تحمل هي الأخرى شعار الديمقراطية الهادفة لصالح القوة المسيطرة على العالم اليوم، ظاهرها رحمة وباطنها امتصاص لخيرات الشعوب واستعبادهم تحت شعار " الاقتصاد المفتوح والمنافسة الحرّة ونحو الحدود الجغرافية " ونهاية التاريخ وفقًا لما كتبه وتنبأ به فوكوياما الياباني الأصل الأمريكي الجنسية.

ومع ذلك فالتاريخ هو ذاكرة الأمم والشعوب، وهو الحمية الواقية التي تربط الحاضر بالماضي استعدادًا لبناء المستقبل.

وفقًا لهذا المنظور، فإنّ تاريخ بلاد المغرب هو تاريخ مناضل تكسرت على صخور شواطئه كامل موجات الطامعين، ولعلّ السّر في كل ذلك هو الإرتباط بالحضارة الأمازيغية العربية الإسلامية التي امتزجت دماء أبنائها منذ ما يزيد على أربعة عشرة قرنًا لتشكل الإسمنت الذي لا ينفصم مهما كان.

المراجع المعتمد عليها:

المراجع العربية:

*شنيتي محمد البشير الجزائر في ظل الاحتلال الروماني بحث في منظومة التحكم العسكري(الليمس الموريطاني)و مقاومة المور جزء2(1999)

*غانم محمد الصغير مقالات و آراء في تاريخ الجزائر القديم (2005)

المراجع الأجنبية:

* F. Décret et M. Fantar, l'Afrique du nord dans l'antiquité.

*DIEHL Charles l'Afrique byzantine(1896)

المقالات الأجنبية:

* FRED W. H. C., The Donatist church. A mouvement of protest in Roman North Africa, Oxford, 1952-2nd édition. 1971,

* P. A. Février « Religion et domination dans l'Afrique Romaine », Dialogue d'Histoire ancienne, II, 1979.